بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة مُفَرَّغة بعنوان :

(تَكْوِينُ وَعْيُ المُسْلِمِ المُعَاصِرْ)

لفضيلة الشيخ الدكتور : سلطان بن عبد الرحمن العميري – حفظه الله –

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

أحييكم أيها الإخوة الكرام في هذا اللقاء الذي اسأل الله عز وجل أن يكون لقاءً طيباً مباركاً .

سأتحدث إليكم في هذا اللقاء بإذن الله عز وجل عن / **تكوين وعي المسلم المعاصر** ، وحتى تكون رؤيتنا وتصوراتنا عن هذا الموضوع تصورات جيدة وواضحة منذ البداية لابد أن نُعرِّف بالوعي ، وما الذي نقصده به ؟

- **تعريف الوعي في اللغة :** هو الحفظ مع الفهم والإدراك .

فلا توصف الحالة التي يكون عليها الإنسان بكونها وعياً إلا إذا جمعت بين الحفظ وبين نوعٍ أو قدرٍ كبيرٍ من الإدراك والفهم ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : **(وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) [الحاقة:١٢]** ، فليس المراد بهذه الآية أي تحفظها أعينٌ أو أذنٌ حافظة فقط ، إنما هناك قدرٌ زائدٌ على الحفظ وهو الفهم والإدراك ، أي تعْقِلَها وتتدبرها.

ومنها أيضاً قول النبي – ﷺ – : **(نضَّرَ اللَّهُ امرَءًا سمعَ مقالتي فأداها كما سمعها ، فربَّ مبلَّغٍ أوعى لَهُ من سامِعٍ) [إسناده صحيح]** ، فليس المقصود أنه حفظها فقط ، وإنما حفظها وفهمها وأدرك معانيها .

ومنها أيضاً قول النبي – ﷺ – : (**لا يُعَذِّبُ الله قلباً وَعَى القرآن**) **[الحديث يصح موقوفاً على أبي أمامة]** ، فليس المراد بهذا الحديث حفظ القرآن فقط ، وإنما حفظه ووعاه وعمل بما فيه .

- **تعريف وعي المسلم المعاصر**

– وبناءً على هذا المعنى اللُّغوي الذي يتعلق بتعريف الوعي يمكن أن نُعَرِّف وعي المسلم المعاصر فنقول : (**هو الحالة الفكرية والمنهجية التي يجب أن يتصف بها المسلم المعاصر في تعامله مع المشاهد الحياتية**)

– وإذا قلنا : تكوين وعي المسلم المعاصر فيكون المعنى (الارتقاءُ بالحالة الفكرية والمنهجية التي يجب أن يتصف بها المسلم المعاصر في تعامله مع مشاهد الحياة)

إذاً نحن نتحدث عن وسائل وعن قوانين تلتقي بحالة المسلم المعاصر في تعامله مع مشاهد الحياة ومشكلاتها .

وبناءً على هذا التعريف فالوعي ليس بكثرة المعلومات ، فكثيرٌ مما لديه معلومات واسعة لا يملك وعياً بالواقع ، فالوعي إذاً ليس من علاماته كثرة المعلومات أو قلتها .

والوعي أيضاً ليس بمجرد فهم الواقع ، وإنما لابد من امتلاك الأدوات التي تساعد على تحسين التعامل مع الواقع.

إذاً هذه تنبيهات لابد من التفطن لها منذ البداية ، أن الوعي لا يتعلق بكثرة المعلومات ، ولا بفهم الواقع ، وإنما يتعلق بطريقة التعامل مع الواقع وكيفية النظر فيه .

فالوعي إذاً حالةٌ مركبةٌ تشمل الأدوات التي يتعامل بها الإنسان مع الواقع ، وتشمل أيضاً معلوماته عن الواقع.

نحن نتحدث عن حالةٍ مركبةٍ من عددٍ من الأمور : **من معلومات يعرفها الإنسان عن واقعه ، ومن أدواتٍ وقوانين يعتمدها في التعامل مع واقعه.**

ومن خلال هذا التعريف يظهر أن الوعي الذي نتحدث عنه يتعلق بمنهجية التفكير وبطريقة النظر وبطريقة الاستدلال وبطريقة التحليل فهو حالةٌ متعلقةٌ بطبيعة عقلية المسلم ، وبالقوانين التي يحملها الإنسان في داخله ، فهو يتعلق بحالةٍ تأمُّليةٍ عقلية ، ولا يتعلقُ بالتطبيقات العملية فقط ، بل التطبيقات العملية هي نتيجة الوعي ، وليست هي الوعي الذي نتحدث عنه ، فالوعي الذي نتحدث عنه يتعلق بطبيعة النظر العقلي ، وبطبيعة التأمل العقلي في مجريات الواقع .

- **مجالات الوعي**

- ننتقل بعد ذلك لنقطة أخرى وهي : مجالات الوعي

بما أن الوعي يرتكز على الحالة الفكرية التي يسبقها المسلم في التعامل مع مشاهد الحياة ، فهذا يدل على أن مجالات الوعي تتنوع بتنوع مجالات الحياة ، فهناك وعي اجتماعي ، ووعي اقتصادي ، ووعي تعليمي ، ووعي طبي ، ووعي أُسري ، وغيرها من مجالات الحياة المتنوعة ، فكل مجالٍ من مجالات الحياة يتعلق به وعيٌ يخُصُه .

ونحن في هذا اللقاء لا نستطيع أن نتحدث عن كل المجالات المتعلقة بالحياة ، وإنما سنركز على الوعي المتعلق بمجريات الأحداث التي لها ارتباطٌ بالدعوة الإسلامية ، ولها ارتباطٌ بالمشروع الإسلامي في العالم الإسلامي.

- هنا قضية لابد من إثارتها قبل أن ندخل في تفاصيل الموضوع وهي :

- **لماذا نهتم بتكوين الوعي عند المسلم المعاصر ؟**

هناك اتفاق بين كثير الدارسين المعاصرين على أن الأزمات الكبرى التي تُعاني منها المجتمعات الإسلامية هي أزمة الفكر والوعي ، وإذا أردنا أن نُحدد الأسباب التي تدعونا إلى الاهتمام بحلِّ هذه الأزمة ، أو بالنظر في معطيات هذه المعضلة يمكن أن نذكر عدداً من الأسباب :

١- أن الجانب الفكري من أخطر الأمور المؤثرة في حياة الناس

فالإنسان كما تعلمون حيوانٌ مُفكر ، فالذي يُحرِّكُه في كثيرٍ من أعماله الاختيارية الإرادة والذكاء ، ولهذا كانت الأفكار من أكثر ما يؤثر في حياة الناس ، والحالة الفكرية التي تعيشها المجتمعات هي من أعمق ما يُغير من حالتها الحضارية والمعيشية.

يقول مالك بن نبي – رحمه الله – : (إن تنظيم المجتمع وحياته وحركته بل فوضاه وخموده وركونه كلُّ هذه الأمور ذات علاقةٍ وظيفيةٍ بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع ، فإذا ما تغير هذا النظام بطريقةٍ أو بأخرى ، فإن جميع خصائص المجتمع الأخرى تتعدد في الاتجاه نفسه)

فهو يؤكد على أن التصرفات التي تقع في حياة الناس إنما هي في كثيرٍ منها أو في أصلها نتيجة طبيعة الأفكار التي يحملونها في عقولهم ، فإذا أردتَ أن تغير من سلوك رجلٍ أو شخصٍ ما فغيِّر من طبيعة الأفكار التي يحملها في عقله ، وإذا ما أردت أن ترتقي بسلوك مجتمعٍ ما فاسعى إلى تغيير الأفكار المسيطرة على أفراد ذلك المجتمع .

فالأفكار هي التي تؤدي إلى ارتقاء المجتمعات وهي التي تؤدي إلى انحطاط المجتمعات .

بل الغريب أن الأفكار لا تؤثر في سلوك الناس وأعمالهم فقط ، بل تؤثر حتى في صحتهم ، فكثيرٌ من الأمراض سببها تصوراتٌ وهمية يحملها الإنسان في صدره ، وكثيرٌ من حالات الشفاء من الأمراض هي نتيجة تصورات يحملها الإنسان في عقله .

ومن أغرب الشواهد على ذلك : قصة الضباط الثلاثة في جيش هتلر ، فإنهم خالفوا أمره ، وقال : لأعذبنهم عذاباً لم يسبقه أحدٌ إليهم من قبل ، فأتى بهؤلاء الجنود الثلاثة ووضع كلَّ واحدٍ منهما في سجنٍ انفرادي ، وقال له : إن في هذا السجن سمٌ سيقتلك بعد ستِّ ساعات ، ووضع كل ضابطٍ في السجن وأعطاه هذه المعلومة ، ثم جاءهم بعد ستِّ ساعات وفتح باب السجن الانفرادي فوجد اثنين من الضباط ماتوا ولقوا حتفهم ، والضابط الثالث في الرمق الأخير ومات بعد لحظات .

الغريب أن السجن ليس فيه سمٌ ، وأن هذه المعلومة التي أعطاهم إياها هتلر كانت معلومة كاذبة ، ومع ذلك مات أولئك النفر بسبب التوهمات التي حملوها والتي عاشوها لمدة ستِّ ساعات فقط ، هذا شاهدٌ ظريف يُبيّن لنا خطورة الأفكار التي يحملها الناس في عقولهم ، **فالأفكار التي يحملها الناس في عقولهم تؤثر في سلوكهم ، وربما تؤثر في صحتهم وفي معاشهم وفي علاقتهم مع الناس.**

إذاً نحن نتحدث عن موضوع في غاية الخطورة ، وإذا اهتممنا بالجانب الفكري الذي يحمله الإنسان في عقله ، فنحن في الحقيقة نهتم بأمرٍ عظيم سيؤثر بمجريات حياة الإنسان والناس في معاشهم.

وهذا المعنى قد أشار إليه القرآن ، فقد أشار إلى محورية ما يحمله الناس في عقولهم كم في قوله سبحانه وتعالى : **(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) [الرعد:١١]**

ومعنى هذه الآية أن الله عز وجل يُخبر عن سُنةٍ من السُّنن الكونية التي جعلها حاكمةً في الكون وهي أن الله تعالى لا يُغيّرُ من حال الناس من صلاحٍ وفساد حتى يُغيّروا ما بأنفسهم من صلاحٍ وفساد ، فإذا أراد الناس الذين يعيشون في فساد أن يُغيّر الله من حالهم ذلك فليبدؤوا هم بأنفسهم ويُغَيّروا من الفساد الذي يحملونه في كياناتهم وفي مجتمعاتهم فستتغير حياتهم ، وإذا غيَّر الناس حالهم الصالح إلى حالٍ فاسد فإن الله سيُغيّر حالهم من صلاحٍ إلى فساد .

ولأجل خطورة الجانب الفكري في حياة الناس حرص الأعداء على هذا الجانب بشكلٍ كبيرٍ جداً ، ولهذا حرصت القوة العُظمى في هذا العصر وهي القوة الأمريكية على أن تسلك مسلكاً جديداً في الحروب أسمته (**حرب الأفكار**) وهذا مصطلحٌ أطلقته بعض المنظمات الأمريكية **وتقصد به أن هناك نوعاً من الحرب يمكن أن يُحارب به الأعداء ليست حرباً مباشرة ، ولا حرباً بالسلاح ولا بالعتاد ولا بالرصاص ، وإنما حربٌ عن طريق الأفكار.**

يقول رامسفلد في حوارٍ له في صحيفة (**الواشنطن بوست**) إبان غزو العراق : (نحن نخوض حرب أفكارٍ مثلما نخوض حرباً عسكرية ، ونؤمن إيماناً قوياً بأن أفكارنا لا مثيل لها)

ويضيف قائلاً : (إن تلك الحرب تهدف تغيير المدارك ، وإن من المحتم الفوز فيها ، وعدم الاعتماد على القوة العسكرية وحدها)

ويقول بارك أوباما في كتابه (**جرأة الأمل**) : (إن أمريكا تخوض في الشرق الأوسط صراعاً مُسلحاً ، وتخوض في الوقت نفسه حرب أفكار)

ويقول توماس فرديان : (إذا أراد الغرب تجنب حرب الجيوش مع الإسلام ، فإن عليه خوض حرب المبادئ في داخل الإسلام)

فتلاحظون أن كلَّ هذه العبارات تصُبُّ في معنىً واحد وهو أن هناك نوعاً من الحروب مؤثرةٌ في نفوس الناس والمجتمعات كثيراً وهي حرب الأفكار ، يحاربون الناس في الأفكار التي يحملونها ، فينتصرون عليهم ، ويُغيّرون من قناعتهم ومن تصرفاتهم.

ولأجل هذا أطلق مساعد الوزير الأمريكي جوزيف سيناي مصطلحاً أسماه (**القوة الناعمة**) وألَّف كتاباً بهذا العنوان وهو مترجم إلى العربية ، **وعرَّف القوة الناعمة بقوله : (هي القدرة على الحصول على ما تريده عن طريق الجاذبية والإقناع بدلاً من الإرغام ودفع الأموال)**

وذكر جوزيف أن هذه القوة لها تأثيرٌ كبير في المجتمعات ، ولها أثرٌ عميق في تغيير تصرفاتهم وسلوكهم ، وأشار إلى أن جدار برلين سقط بالتلفزيون والأفلام السينمائية قبل سقوطه الحِسّي سنة ١٩٨٩م ، فالجدار سقط حِسّيًّاً سنة ١٩٨٩م ولكنه يقول هو سقط من نفوس الناس ، ومن عقول الناس ، ومن حياة الناس قبل ذلك بأسلحةٍ أخرى مختلفة عن سلاح النار والعتاد وهو سلاح السينما والتلفزيون التي ترسل إلى الناس أفكارٍ تؤثرُ في نفوسهم وحياتهم ، ثمَّ بيَّن أن القوة الناعمة تملكها تياراتٌ ومنظماتٌ كثيرة في العالم وليست خاصة بالحكومات والدول ، وهذه معلومة أراد أن يستثمرها وأن يقنع قومه بأهمية هذا النوع من القوة .

ومن أهمِّ ما ذكره جوزيف في كتابه تحديد مفهوم القوة فإنه ذكر أن القوة ليست التسلط على الغير ، ولا القدرة على إصدار الأوامر والنواهي ، قال : (**إنما القوة هي القدرة على التأثير والحصول على النتائج**)

هذه القوة من يتأمل في حال التيارات العلمانية ، والتيارات التغريبية في العالم الإسلامي والعربي يجد أنهم يعتمدون عليها كثيراً من خلال قنواتهم ومجلاتهم ومنتجهم الفكري ، فتراهم يعتمدون على التأثير في عقول الناس وفي تصوراتهم وأحكامهم بحيث أن الناس يمكن أن يكونوا مُتَّبِعِين لهم أو يكونوا على الأقل متعاطفين معهم.

فهذا النوع من القوة ركَّز عليه كثيرٌ من الساعين بالفساد في الأرض .

- **خلاصة ما أريد أن قوله في هذا السبب أننا نهتم بتكوين وعي المسلم المعاصر ، لأن الوعي يتعلق بجانبٍ من أخطر الجوانب التي تؤثر في حياة الناس وهو الجانب الفكري ، وقد ذكرنا دلائل متعددة على أن الجانب الفكري خَطِرٌ جداً على حياة الناس ، فمن يهتم بتكوين الوعي الفكري فهو في الحقيقة يشتغل بأمرٍ خطيرٍ ومؤثرٍ جداً .**

٣- أن الوعي من أفضل وسائل تقوية الحق ونصرته

فبما أن الوعي –كما سبق معنا – من أعمق ما يؤثر في حياة الناس فهو إذاً داخلٌ بالضرورة في الأمر بالإعداد بالقوة الوارد في قوله تعالى : **(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) [الأنفال:٦٠]**

فالأمر بالقوة في هذه الآية المراد به الاشتغال بالإعداد في كلِّ ما يؤثر في قوة الحق ونصرته.

فإذا خرجنا من خلال السبب الأول أن أقوى ما يؤثر في تصرفات الناس ، وفي قَبول الناس للأفكار وعدم قَبولهم هو طبيعة ما يحملونه في عقولهم من الأفكار ، **إذاً النتيجة أن أعظم ما يدخل في إعداد القوة التي أمرنه الله بها في هذه الآية هو تكوين العقلية الواعية لدى المسلمين .**

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – في تفسير هذه الآية : (أي وأعدُّوا لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم ما استطعتم من قوة ، أي كلَّ ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يُعينُ على قتالهم ، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تُعْمَلُ فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق والطيَّارات الجوية والمراكب البرية والبحرية ، والحصون والقلاع والخنادق وآلات الدفاع والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفعوا عنهم به شرُّ أعدائهم وتعلُّم الرمي والشجاعة والتدبير)
فتلاحظون أن الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – كان واعياً بطبيعة القوة التي أمرنا الله عز وجل بها ، وأنها تشمل كل ما يؤثر في حياة الناس إقداماً وإحجاماً ، قَبولاً ورفضاً ، ومما يدخل في ذلك بلا شك طبيعة الأفكار التي يحملها الناس في عقولهم.

٣-لأن الواقع الذي نعيشُ فيه واقعٌ مُعَقَّدٌ جداً

فنحن في الحقيقة نعيش في زمنٍ استثنائي من عدد من الجهات ومنها : أنه زمنٌ معقدٌ غاية التعقيد ، **ومن أقوى أسباب التعقيد التداخل بين المصالح والمفاسد في هذا الزمن** ، فإذا حدثت مشكلة اقتصادية في أمريكا – مثلاً – يتضرر بها الاقتصاد في اليابان ، وتلاحظون الفرق الكبير ، والمساحة الواسعة والشاسعة بين أمريكا وبين اليابان ، ومع ذلك أيُّ مشكلةٍ اقتصادية تحصل في أمريكا سيتضرر منها الاقتصاد الياباني بل اقتصاد العالم كُلُّه ، وإذا وقعت حربٌ في روسيا فسيتضرر بها اقتصاد عددٌ كبير من البلدان ، فنحن إذاً نعيش حالةً من التداخل في هذا العالم المعاصر فأصبح عالماً معقداً.

ومن المؤشرات التي تدلُّ على التعقد المعاصر طبيعة الحروب العسكرية في وقتنا ، فقد كانت الحروب في الزمان القديم تكون بين دولة أو دولتين أو ثلاث أو أربع ، لكنَّ الحروب في هذا العصر لم تعد بين دولتين أو ثلاث أو أربع ، وإنما تكون بين كيانات دولية تنضم تحتها عشرات الدول ، فلا يتصور أن هناك دولتان تتصارعان وتنتهي الحرب بينهما من غير أن يتدخل العالم أو من غير أن يتأثر العالم ، بل أصبحت الحروب في هذا العصر حروباً معقدة ومتداخلة لأنها باتت بين كيانات وليست حروب بين دول.

وكذلك – مثلاً – التغير في العلاقات الدولية ، العلاقات الدولية في العهود والمواثيق وغير ذلك كانت في الزمان القديم مواثيق بسيطة ومُفردة وربما يكون الميثاق في قضية أسرى فقط ، أو في قضيةٍ اقتصادية أو تجارية ، أما الآن فطبيعة العهود والمواثيق بين الدول أضحت معقدة غاية التعقيد ، وأضحت مركبة بشكل كبير تتداخل فيها عدد من المجالات وليس مجالاً واحداً ، فطبيعة العلاقات الدولية الآن ليست مثل طبيعة العلاقات الدولية في الزمان القديم ، **وهذا التعقد يدعونا إلى أن نهتم بتكوين العقلية الواعية التي تُحسن التعامل مع هذا الواقع .**

٤- أن واقعنا المعاصر يتَّصفُ بضخامة التنوع

كما أنه يتَّصف بضخامة التعقد وصعوبته ، فكذلك هو أيضاً يتَّصف بضخامة التنوع ، فيه قدرٌ كبيرٌ جداً من الأفكار ، وقدرٌ كبيرٌ من التيارات ، وقدرٌ كبيرٌ من الآراء ، وقدرٌ كبيرٌ من البرامج والمشاريع بشكلٍ غير مسبوق .

الواقع يضُخُ يومياً عشرات المشاريع ، وعشرات الأفكار ، وعشرات التيارات ، وعشرات الكُتب ، وعشرات المحاضرات ، ففي واقعنا تنوعٌ ضخمٌ جداً من هذه المعطيات التي تقفُ أمام الشباب وأمام الناس ، فإذا لم يكن عند الإنسان وعيٌ كبير لا يستطيع أن يُحسن التعامل مع هذا المُعطى الجديد وهذا التنوع الضخم .

فإذاً نحن نهتم بتكوين الوعي عند المسلم المعاصر حتى نُحسن التعامل مع هذا التنوع الضخم الذي يقف عليه الشباب ، ويقف عليه الناس.

٥- ضخامة المشاهد المؤلمة

المسلمون اليوم يرون أمام أعينهم كلَّ يوم مشاهد تُفَطِّع القلوب ، وتُدمي العيون ، وتُحزِن الأفئدة ، يرون إخوانهم يُقَتَّلُون ويُذَبَّحُون ، وبيوتهم تُهَدَّم ، وأموالهم تُسْرَق ، وأعراضهم تُنْتَهك ، فهذه المشاهد المؤلمة تجعل الحليم حيراناً ، وتجعل الإنسان يخرج عن طوره وعن عقله ، فتجده يتصرف تصرفاتٍ تخرج عن العقل والتأمل والفكر ، ويَغْلُب عليه العاطفة ، **ودائماً إذا غلبت العاطفة في اتخاذ القرارات ستكون القرارات قاتلة ومفسدة بشكلٍ كبير** ، فنحن نحتاج إلى تكوين الوعي وغرّسه في نفوس الشباب حتى لا يتأثروا بهذه المشاهد المؤلمة التأثرات السلبية ، نعم سيتأثرون ، وكلُّ مسلمٍ لابد أن يتأثر ، لكن التأثرات السلبية التي تُخرج الإنسان عن عقله ، وتجعله مرتهناً لعاطفته سيكون لها أثرٌ كبيرٌ على قراراته التي يتخذها **فكيف نتخلَّص من هذه السلبية ؟**

من أفضل الطرق التي تجعلنا نتخلص من الآثار السلبية التي يمكن أن تترتب على هذه المشاهد المؤلمة أن نحرص على تكوين العقلية الواعية لدى الشباب المسلم ، فيمكنهم مع ذلك أن يُحْسنوا التعامل مع هذه المشاهد المؤلمة فلا يتأثّروا بها التأثرات السلبية .

٦- لأن تكوين الوعي من أقوى الوسائل التي تساعدنا على استبانة سبيل المجرمين

واستبانة سبيل المجرمين من المقاصد الشرعية التي أرشدنا إليها القرآن ، كما في قوله سبحانه وتعالى : **(وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) [الأنعام:٥٥]**

ولتستبين سبيل المجرمين أي لتعرفوا الحالة التي عليها المجرمون فتُحْسنُوا التعامل معهم .

فمن أقوى ما يساعد على مواجهة الأعداء ، والتخلص من سُلطتهم وسطوتهم على المسلمين أن يتعرَّف صاحب المشروع على عدوه بأكبر قدرٍ ممكنٍ من المعرفة ، يتعرَّف على طريقة تفكيره ، وطريقة أدواته ، وطريقة وسائله التي يعتمد عليها بحيث يكون عميق المعرفة بالحالة التي عليها عدوه ، فكثيرٌ من الصراعات والحروب تغيَّرت مجرياتها ليس بسبب ازدياد قوة الطرف المُنتصر ، وإنما بسبب زيادة معرفة الطرف المُنتصر بطبيعة الطرف المغلوب .

يقول أحد المفكرين الصينيين في عبارة مُعبِّرة : (إن من يعرف العدو ، ويعرف نفسه سوف تمتد حياته ليخوض مئة اشتباك ، وإن من لا يعرف العدو ، ولكنَّه يعرف نفسه فقد ينتصر أحياناً ، وينهزم أحياناً أخرى ، أما من لا يعرف نفسه ولا عدوه ، فإنه سيُنْمَى بالهزيمة دائماً في كل اشتباك)

وأصحاب المشروع الإسلامي هم مِنْ أشدِّ مَنْ يجب عليهم أن يهتموا بمعرفة عدوهم ، ويسعوا إلى استبانة حاله ، ومعرفة ما هو عليه ، لماذا ؟ لأن المشروع الإسلامي ابتُلي بعدوٍ شرس في هذا العصر ، ابتُلي بعدوٍ يُتصف بصفاتٍ كثيرة أهمها ثلاثُ صفاتٍ أساسية :

أ- الصفة الأولى : صفة التربص والمراقبة

ب- الصفة الثانية : التفوق في القوة

ت- الصفة الثالثة : المكر والدهاء

فأعداء المشروع الإسلامي في العالم الإسلامي اليوم يتصفون بهذه الصفات الثلاث ، أولها التربص والمراقبة فهم يراقبون العاملين في المشروع الإسلامي مراقبةً دقيقة ، ويعرفون تصرفاتهم ، والأعمال التي يقومون بها .

والصفة الثانية التفوق في القوة ، هم يتفوقون على العاملين في المشروع الإسلامي بالقوة العسكرية ، والقوة السياسية ، والقوة المالية ، والقوة الإعلامية ، فهم متفوقون علينا نحن المُشتغلين بالمشروع الإسلامي .

والصفة الثالثة المكر والدهاء ، ومعنى المكر والدهاء أن المحاربين للمشروع الإسلامي يستعملون أقذر الوسائل ، وأيُّ وسيلةٍ يمكن أن تضر بالمشروع الإسلامي أو تعرقله أو تشوه صورته عند الناس ، فيمكن أن يستعملوا أيّ أسلوب ، وليس لديهم حواجز أمام الأساليب القذرة ، فيمكن أن يستعملوا أي شيء ولو كان القتل أو التحريق أو التفجير أو أيّ شيءٍ من ذلك.

ويمكننا أن نضرب أمثلةً على الصفة الثالثة وهي المكر والدهاء بعددٍ من الشواهد المنتشرة في عصرنا ، ومن ذلك مثلاً : استغلال الأعداء للغلو والتشدد ، فهذه التيارات التي اتصفت بالغلو والتشدد استغلَّها المجرمون والمحاربون للمشروع الإسلامي أعظم استغلال ، وركِبُوا من خلالها وسائل كثيرة أضرَّت بالمشروع الإسلامي ، وأضرَّت بصورته أمام الناس .

ومن أقدم المشاهد على ذلك استغلال بعض الحكومات العربية لجماعة الهجرة والتكفير ، فقد فتحت لهم المنافذ ، وسهلت لهم الوسائل ليقوموا بما يقوموا به من تفجيرٍ وقتلٍ واغتيالٍ وغير ذلك .

عبد الرحمن أبو الخير كان مع هذه المجموعة ثم خرج منهم وكتب كتابه المشهور (**ذكرياتي مع جماعة المسلمين**) تحدَّث في هذا الكتاب عن مشاهد كثيرة مارسها سياسيون في استغلال هذه الجماعة لتحقيق مآربهم الفاسدة ، **ثم قال عبارةً مؤلمةً جداً : (كانوا – أي أتباع جماعة الهجرة والتكفير – جميعاً على علمٍ بسبيل المؤمنين ، ولكنَّهم كانوا جميعاً فاقِدِ الوعي بسبيل المجرمين)**

وقد ذكر هذه المعلومة مختار نوح في كتابه (**موسوعة العنف للجماعات الإسلامية المسلحة**) وهو كتاب ضخم تحدث فيه عن الجماعات الإسلامية المسلحة في مصر ، وذكر أن بعض السياسيين كان يستغل هذه الجماعة في تحقيق مآربهم .

وكذلك ما وقع مع الإسلاميين في الجزائر ، فإن الإسلاميين في الجزائر استُغلَّت حالتهم أبشع استغلال من الحكومة الجزائرية ، ورجال الحكومة الجزائرية ، وفعلوا الأفاعيل باسمهم ، قتلوا وأحرقوا ، واغتالوا الناس باسم هذه الجماعة حتى يشوهوا صورة هذه الجماعة ، وينفِّروا الناس منهم .

يقول محمَّد سمراوي وهو ضابط جزائري فرَّ بجلده إلى دولة من دول الغرب ، وكتب ذكرياته في كتاب (الإسلاميون والعسكر) وهو كتابٌ منشور ، يقول في هذا الكتاب : (القسم الأكبر من الاغتيالات والمذابح الجماعية المنسوبة إلى الإسلاميين منذ عام ١٩٩٢م وبصفةٍ خاصة عام ١٩٩٧م هي في الحقيقة أعمالٌ قام بها مباشرةً أو غير مباشرة رجالٌ تابعون نظامياً للأجهزة الأمنية)

فتلاحظون أن هذا عسكريٌ شاهدٌ على العصر ، وشاهدٌ على الأحداث ، ذكر بأن تلك الجماعات مُخترقة ، وكانت تُستغل في تشويه المشروع الإسلامي ، وتنفير الناس منه .

ومن الشواهد على ذلك أيضاً استغلال التيارات الدعوية والعلمية ، فإنهم اسْتَغَلُّوا تيارات الغلو والتشدد ، فكذلك اسْتَغَلُّوا التيارات العلمية والدعوية ، ولم يقتصر استغلالهم فقط على تيارات الغلو .

تقول وكيلة الخارجية الأمريكية : (يجبُ أن نفكر خارج الإطار التقليدي ، ونوظِّف وسائلَ خلاَّقة للنهوض بالحرية الدينية ، وهنا أفكر في تمويل علماء مسلمين أو أئمةٍ أو أصواتٍ أخرى للمسلمين)

فتلاحظون هنا أن لديهم استعداد على أن يُمولوا بعض الخطباء وبعض العلماء ليُقووا مشروعهم ، أو يحققوا أهدافهم .

وفي تقرير راند سنة ٢٠٠٧م كلام كثيفٌ عن هذه الفكرة ، وذكروا في توصياتهم أنه يجبُ أن تُدعم بعض الشخصيات الدعوية لأنها تحققُ لهم مآرب ومقاصد هم يسعون إلى تحقيقها ، هذا الكلام ليس بالضرورة أنه وقع من هؤلاء الدعاة ، ولكنُّه شاهدٌ على أن المجرمين يمكن أن يستغلوا أي وسيلةٍ لتحقيق مآربهم ومقاصدهم ولو كان بدعمِ بعض الدعاة والعلماء والأئمة والخطباء .

<u>في الحديث عن مكر الأعداء واستغلالهم لابد أن نُشير إلى عدد من التنبيهات المهمة :</u>

أ- أنه ليس من شرط الاستغلال سوء النية أو الدين ، فقد يكون المُسْتَغَلُّ من أصدق الناس وأشَدِّهم في الدين ، ومع ذلك يسْتَغِلُّه المجرمون ، إذاً ليس من شرط الاستغلال سوء النية أو سوء التدين ، وإنما من شرّطه ضعفُ الوعي والفطانة ، فالمُسْتَغَلُّ لا نتهمه في دينه ، ولا نتهمه في نيته ، وإنما نتهمه في عقله وفي فطانته ووعيه .

ب- أنه ليس من علامةِ الوعي محاربةُ المجرمين لتيارك أو لحزبك ، فَكَون المجرم أو العدو يعلنُ المحاربة لتيارك أو لحزبك الذي تنتمي إليه ليس معناه أن حزبك يملكُ وعياً ، أو يملكُ صحةً ، لماذا ؟ لأنه قد يكونُ من وسائل المجرمين تلميعُ هذا التيار بإعلان محاربته حتى يكون التشويه للمشروع الإسلامي من خلاله ، فكثيرٌ من الشباب يظنوا أن من علامةِ الوعي أن المفسدين والمحاربين يعلنون العداوة لتياره و لحزبه فيجعل ذلك علامةً على أنه يملكُ وعياً ، والحقيقة أن الأمرَ ليس كذلك.

إذاً فالوعي عمليةٌ تحتاجُ إلى نباهةٍ وفطنة ، فقد يكونُ الإنسانُ مُسْتَغَلاً ، وقد يكونُ الإنسانُ يخدمُ عدوه وهو لا يشعر بذلك.

- هذه أهم الوسائل التي تدعوننا إلى أهمية البحث في تكوين الوعي عند المسلم المعاصر ، وتلاحظون أيها الإخوة الكرام أنها وسائل في غاية العمق ، وفي غاية الخطورة ، وأنها بالفعل تكشف لنا عن خطورة الموضوع التي نحن نتحدث فيه ، وأنَّه موضوعٌ خطرٌ جداً ، هو من أقوى ما يُؤثِّرُ في حياة الناس ، ومن أقوى الأمور التي اهتمَّ بها الأعداء فلابد أن نتفطن لهذا الموضوع غاية التفطن ، ولابد أن نهتم به نهاية الاهتمام .

▪ وسائل تكوين الوعي عند المسلم المعاصر

- الآن ننتقل إلى قضية أخرى مهمة ، وهي وسائل تكوين الوعي عند المسلم المعاصر ، نحن تحدثنا في تعريف الوعي ، وفي مجالات الوعي ، وفي أسباب الوعي وأهميته ، والآن نتحدث عن عنصر مهم وهو كيف نُكَوِّن الوعي عند المسلم المعاصر ؟
- **فما هي الوسائل التي تساعدنا على تكوين الوعي بعصّرنا الحاضر ؟**

الوعي ليس صفةً ذاتيةً في الإنسان ، لماذا ؟ لأنَّه نوعٌ من العلم ، والعلمُ ليس مغروساً في الإنسان ، وإنما يُحَصِّلُهُ الإنسانُ بالتعلّم في حياته كما قال الله عز وجل : **(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا) [النحل:٧٨]**

إذاً والله أخرجكم من بطون أمهاتكم وأنتم لا تملكون وعياً ، فلابد للإنسان أن يحرص على تكوين الوعي كما يحرص على تكوين العلم في الجوانب الأخرى ، وكلَّما ازداد موضوع العلم تعقداً وصعوبة ازدادت وسائله تعقداً وصعوبة ، فكذلك الوعي بما أننا نتحدث عن وعيٍ بواقعٍ معاصرٍ مُعَقَّدٍ وصعبٍ يتصف بضخامة التعقد ، وضخامة التنوع فنحن إذاً نتحدث عن موضوعٍ من العلم صعب ووسائله ستكون مُعَقَّدة .

أقول هذا الكلام ليس تعجيزاً ، وإنما كشفاً عن الحقيقة ، وأننا أمام موضوع يستحقُ قدراً عالياً من العناء ، وقدراً عالياً من الاهتمام .

هناك وسائل كثيرة يمكن من خلالها أن نُحقق الوعي لدى المسلم المعاصر ، سأذكر تسع وسائل وبشكلٍ سريع .

١- الوسيلة الأولى : التنوع المصَّدري

والمراد بهذه الوسيلة هو أن يكون لدى الإنسان تنوعٌ في المصادر التي يعتمد عليها في تكوين فكره ووعيه ، ولا يعتمدُ على نوعٍ واحدٍ من المصادر ، وإنما يحاول أن يأتي على أكبر قدرٍ من المصادر والمراجع التي يعتمد عليها ، فليس صحيحاً إذا أراد الإنسان أن يكون صاحبَ وعيٍ بمشروعه الإسلامي أن يعتمد فقط على البحوث التي يُنْتِجُها أصحابُ حزبه ، أو على المحاضرات التي يُلْقِيها رجالُ تياره فقط ، أو جماعته التي يعيشُ معهم ، أو المتفقين معه في المنهج ، وإنما يجبُ على القاصد لتكوين الوعي أن يحرص على أن يقرأ لكلِّ التيارات ، ويقرأ لكلِّ الأحزاب والجماعات والمذاهب ، لماذا ؟ لأن التنوع في المصادر يُعِينُهُ على تَفَتُّقِ ذهنه ، وعلى توسع إدراكه ، وعلى معرفة الاختلافات الموجودة في الواقع فيُحْسن التعامل مع ما لديه من أحداث ، والمُشْكل أن كثيراً من الشباب لا يقرأُ إلا لشيخه فقط الذي يتعلَّمُ على يديه ، أو لا يستمع لمحاضرات إلا من يُحِبّ ، أو من يميلُ إليهم ، أو من يتفقُ معهم في المنهج وغير ذلك ، وهذا ليس صحيحاً ، نعم هو لابد أن يفعل ذلك وأن يُرَكِّزَ على ذلك ، لكنَّ المشكلة في الاقتصار ، فهو يقتصرُ على ذلك ولا يسمع للغير ، وهنا تكون نسبة الوعي لديه نسبة متدنية بشكلٍ كبيرٍ جداً ، وهذه المعلومة بالمناسبة ليست خاصة بالوعي المتعلق بالواقع ، بل هي عامةٌ في كل المجالات التي يشتغلُ بها الإنسان ، فمن يشتغلُ بعلم العقيدة لابد أن تكون المصادر التي يعتمد عليها متنوعة حتى يكون صاحبَ وعيٍ بعلم العقيدة ، ومن يشتغل بعلم الفقه لابد أن تتنوع المصادر التي يعتمد عليها حتى يكون صاحب وعيٍ بعلم الفقه ، وكذلك كمن يشتغل بالفِكْر ، وكذلك كم يشتغل بالتفسير ، والإصلاح الاجتماعي ، والإصلاح الأُسري ، وغير ذلك .

٢- الاعتماد على المصادر الأصلية

ومعنى هذه الوسيلة أن الإنسان يجب عليه أن يحرص حرصاً شديداً على ألا يأخذ المعلومة إلا من مصدرها الأصلي ، ولا يعتمد على المصادر الوسيطة ، فالمصادر الوسيطة كثيراً ما يحصلُ فيها التغيير والتبديل وربما الكذب أحياناً ، لكن ليس بالضرورة أن يكون كذباً ، يعني كثيرٌ من الأخبار تنتقلُ عدداً من الانتقالات فتتغير تغيراتٍ كثيرة ، فلابد إلى من قَصَدَ إلى تكوين الوعي عند نفسه أو عند غيره أن يحرص على الاطلاع على المصادر الأصلية ، كم من معلومةٍ نُقِلت لنا عن إخواننا ثم اكتشفنا أنها خطأ ، وقد رتَّب عليها بعض الناس أحكاماً ربما انفصالات وربما أمور شنيعة ، وسبب ذلك أنه لم يعتمد على المصدر الأصلي ، وإنما اعتمد على المصادر الوسيطة ، وهناك أمثلة كثيرة تدلُّ على الوسيلة التي نتحدث عنها وخاصةً في الأحكام التي يُطْلِقُها الناس على بعضهم ، فكثيرٌ من الأحكام التي يُطلِقُها الناس على أصدقائهم وأقاربهم وعلى من هم يشتغلون معهم في المجال نفسه سواءً كان علمياً أو اقتصادياً أو إغاثياً هي معلومات ليست مأخوذة من المصادر الأصلية ، وإنما هي مأخوذةٌ من مصدرٍ ينقُلُ عن مصدرٍ آخر فتتغير عدد من التغيرات ، ويُضاف إليها عدد من المعلومات ، وتُحذف منها عدد من الفقرات المؤثرة في الحكم ، فمن أراد أن يكون صاحب وعيٍ فعليه أن يحرص على الاعتماد على المصادر الأصلية.

٣-استيعاب التجارِب السابقة

ومعنى هذه الوسيلة أن من أراد أن يكون صاحب وعيٍ في عصرنا الحاضر ، وخاصةً وعياً دعوياً أو إصلاحياً أو ما يتعلق بالمشروع الإسلامي لابد أن يحرص على دراسة التجارِب السابقة ، واقعنا المعاصر في العقود الثلاثة الأخيرة أو في الخمسين سنة الأخيرة فيها تجارِب إسلامية كبيرة وضخمة بعضها اقتصادي ، وبعضها فكري ، وبعضها تعليمي ، وبعضها دعوي ، وبعضها جهادي ، فلابد لنا أن نستوعب هذه التجارِب كلَّها ، وندرسها دراسةً معمقة ، فنعرف مواطن القوة فيها ، ونعرف مواطن الضعف فيها حتى نُحسن أن نصنع مشروعاً آخر يمكن أن يكون صالحاً يتجاوز المُعضلات التي تُقابلنا في حياتنا ، المُشْكِل أن كثيراً من الشباب العاملين في المشروع الإسلامي إذا أراد أن يُجدد لنفسه مشروعاً أن يبدأ من الصفر ، ولا ينظر في التجارِب السابقة ، ولا يقوم بدراستها دراسةً معمقة ، وإذا أردنا أن ندرس التجارِب السابقة لابد أن نكون في غاية التجرد وغاية الصدق ، لأنَّ كثيراً من الدراسات التي خرجت هي في الحقيقة تُعاني من ضعف الصدق ، فلا تحرص على أن تُعْمِل جانب النقد بشكل واضح وصريح ومباشر ، إنما مراعاةً أو مجاملةً أو غير ذلك.

٤- الاهتمام بتاريخ الأفكار والمجتمعات

هذه الوسيلة من أهمِّ ما يساعد على تكوين الوعي ، وخاصةً في عصرنا الحاضر ، والمُشْكِل أن تاريخ الإسلام في المتأخر يُعاني من إهمال وعدم تعمق في دراسته مع أن الأحداث التي مرَّت بالأمة في العقود المتأخرة أحداثٌ ضخمة ومتداخلة ومثيرة وثريةٌ جداً تحتاج من الشباب المسلم في هذا العصر أن يحرص على هذه الأحداث ، وعلى هذا التاريخ في الخمسين السنة الأخيرة حرصاً شديداً لأنها من أهم ما يُبيّن له طبيعة الصراع الموجود في العالم الإسلامي ، وأيضاً من أهم ما يكشف طبيعة العقبات التي تقف أمام طريق المشروع الإسلامي ، **ومع هذه الأهمية كلها هناك اهمالٌ لهذا التاريخ وعدم اهتمامٍ به من جهة دراسته ، وعدم اهتمامٍ به من جهة تدوينه وكتابته** ، كثيرٌ من الأشخاص الذين ما زالوا أحياءً حتى الآن لديهم تاريخٌ ضخم يحملونه في صدورهم ، ومع ذلك لم يُقَيِّدوه ولم يُدَوِّنوه ، وبعضهم بلغ من السنِّ عتياً قد يموت ويموت معه تاريخٌ ضخم ،

وهؤلاء يجب عليهم وجوباً أن يُقَيِّدوا التاريخ الذي يعرفونه وعاشوه ، لماذا ؟ لأنَّ هذا التاريخ ليس خاصاً بهم ، وإنما هو ميراثٌ للأمة ، وميراثُ الأمة لا يجوز لهم أن يُفَرِّطوا فيه ، بل يجب عليهم يحفظوه للأمة ، ولا يكون حِفْظُهُ إلا بتدوينه إما مكتوباً وإما مُسجلاً أو مُصوراً ، ولا يجوز لهم شرعاً أن يُفَرِّطوا في التاريخ الذي يحملونه إلى أن يموتوا فيموتُ معهم تراثٌ وميراثٌ ضخمٌ للأمة تستفيدُ منه أجيال الأمة القادمة .

٥- تكوين العقلية الناقدة

المراد بالعقلية الناقدة هي العقلية النابهة التي تلتزمُ بوسائل الدِّقة في الأحكام والنظر ، وأنا قد تحدثت عن هذا في محاضرة منشورة على اليوتيوب بعنوان (**تكوين العقلية الناقدة**) وتحدثت فيها عن عدد من العناصر والأفكار ، مَنْ أراد أن يتعرف عليها فليرجع إلى المحاضرة .

- **من صفات صاحب العقلية الناقدة :**

أ- الدِّقةُ في العبارة والأحكام

ب- القدرة على التحليل

ت- التريث في الاقتناع واتخاذ القرار

ث- التمسك بالفحص والتأكيد والتثبت

ج- التمسك بالاستدلال وإقامة الدليل

هذه خمس صفات من أهمِّ الصفات التي تُكَوِّن العقل الناقد ، أو يتصف بها صاحب العقلية الناقدة ، وتلاحظون أنها كلَّها مما يقوي الوعي عند الإنسان ، فلا يكون متسرعاً ، ولا يكون ضعيفاً في الفهم والتحليل ، ولا يكون مُترهل العبارات بحيث لا تكون عباراته دقيقة.

إذاً من وسائل تكوين الوعي عند الشباب المسلم المعاصر الحرص على تكوين العقلية الناقدة لديهم .

٦- الحرصُ على التطوير ومتابعة الجديد

فلابد لمن أراد أن يصل إلى الوعي بمتطلبات عصرنا الحاضر أن يحرص على أن يُطَوِّرَ نفسه ، كثيرٌ من الدعاة توقف عن طلب العلم ، وكثيرٌ من المشتغلين بالإغاثة توقف عن تطوير مشاريعه ، وكثيرٌ من المشايخ والمعلِّمين والعلماء توقف عن متابعة مجريات الواقع ، وهذا مُشْكِل ، إذا أردت أن تكون صاحب وعيٍ فليكن من جدولك ومن أعمالك تطوير قُدُرَاتك ومعرفتك بالواقع .

٧- التعمق في دراسة السنن الكونية

الله عز وجل حين خلق الكون ضبطه بسننٍ يسير عليها الكون ، فلابد لمن أراد أن يتعرَّف على مسيرة المجتمعات وعلى تغيرات المجتمعات أن يحرص على هذه السنن التي وضعها الله عز وجل في الكون ، والغريب أن القرآن أرشدنا إلى هذه السنن في مواضع كثيرة جداً ، وأُلِّفت كُتب كثيرة فيما يتعلق بالسنن الكونية ، فمن الواجب على القاصد لتكوين الوعي أن يتعمق في دراسة السنن التي ذكرها القرآن وأرشدنا ونبهنا إليها ، فهي من أقوى ما يساعد الإنسان على معرفة تغيرات المجتمعات وطريقة مسيرتها .

٨- الحرصُ على الالتقاء بالخبراء

لابد لكلِّ صاحبِ مشروعٍ أن يحرص على أن يكون من جدوله أن يلتقي بالخبراء في هذا المشروع ، فمن كان من مشروعه طلب العلم فلابد أن يكون من جدوله أن يلتقي بالخبراء في طلب العلم ، ومن كان من مشروعه الاشتغال بالإغاثة فلابد أن يكون من جدوله أن يلتقي بالخبراء في شأن الإغاثة ، وكذلك من كان من مشروعه الاشتغال بالجهاد ، أو الاشتغال بالشأن السياسي ، أو الاقتصادي ، أو غير ذلك لابد أن يكون من ضمن جدوله أن يلتقي بالخبراء في كل مجالٍ يشتغل به ، لماذا ؟ لأنَّ الخبراء سيعطونه معلومات لا يجدها في كتب ولن يُحَصِّلَها إلا بعد سنوات ، فيُقَلِّلون عليه الخبرة أو التجارِب التي ربما سيقع فيها أو سيُمارسها ويعطونه عُصارة ما عاشوه خلال هذه السنوات ، فالالتقاء بالخبراء من أقوى الوسائل التي تساعد على تكوين الوعي عند الشباب المسلم المعاصر.

٩- التوسعُ في قراءة العلوم الإنسانية وخاصةً علم الاجتماع

لماذا علم الاجتماع ؟ لأن علم الاجتماع هو العلم الذي يهتم بدراسة الحياة الاجتماعية ، والمُشْتَغِل بالمشروع الإسلامي هو في الحقيقة أعماله متعلقة بالمجتمع ، فلابد أن يتعمق في دراسة هذا المجتمع ، طبيعة العلاقات التي فيه ، طبيعة الكُتل التي يتكون منها ، طبيعة المؤثرات وغير ذلك ، وهذه كُلُّها سيجدها في علم الاجتماع ، المُشْكل أن كثيراً من الشباب المُشتغلين بالإصلاح الاجتماعي ، والمُشتغلين بالمشروع الإسلامي هم مُفَرِّطون في مثل هذه العلوم التي تكشف لهم كثيراً من الخرائط ، وكثيراً من القوانين والقواعد التي تُفيدُهم في مشروعهم وفي تطبيقاتهم وتعاملهم مع المجتمع ، فأيُّ شابٍ أو أيُّ تيارٍ أو أيُّ جماعةٍ تريد أن تمارس الإصلاح والمشروع الإسلامي فعليها أن تحرص على هذه العلوم وخاصةً علم الاجتماع لأنَّ علم الاجتماع سيكشف له عن كثيرٍ من القوانين والمبادئ والوسائل التي تساعده على حُسْن التعامل مع الواقع ، والمجتمع الذي يسعى إلى إصلاحه .

إذاً هذه تسعُ وسائل تشتركُ في تكوين الوعي المعاصر.

▪ قوانين الوعي المعاصر

ننتقل إلى العنصر الأخير وهو قوانين الوعي المعاصر.

ما هي القوانين التي نعتمد عليها حتى نكون أصحاب وعيٍ صحيح ووعيٍ عالٍ ؟

سأذكر ثمانية قوانين بإذن الله عز وجل ، القوانين في الحقيقة كثيرة جداً ، لكني حرصت على أهم القوانين التي تؤثرُ في المُشتغلين للمشروع الإسلامي من خلال التأمل في طبيعة الدعوة ، كثير من الدعاة ومن المشاريع الدعوية ، وكثير من المشاريع الإصلاحية باختلاف أنواعها ، وأيضاً من خلال التأمل في عدد من أنظمة الجماعات الإسلامية وغير ذلك ، حاولت أن أستخلص أهم القوانين التي إذا التزم بها شخصٌ ما سيكون صاحب وعيٍ بإذن الله عز وجل ، وهي أيضاً من المعايير التي يمكن أن نعتمد عليها في الحكم على الناس ، هل هم أصحاب وعيٍ أم لا ؟ فإذا أردنا أن نحكم على شخصٍ ما ، أو على جماعةٍ ما باعتبار وعيها ، فلننظر في هذه القوانين ، هل التزموا بها ؟ هل طبقوها بطريقةٍ صحيحةٍ أم لا ؟ فهي إذاً قوانين يلتزم بها الإنسان في حياته ، وهي أيضاً معايير يمكن أن نحكم بها على الآخرين .

١- القانون الأول : الموازنات

ومعنى الموازنات أو حُسْنُ الموازنة أن يكون الإنسان ملتزم بمبدأ الموازنة بين المصالح والمفاسد ، وأن يكون هذا المبدأ حاضر في كل تصرفاته التي يقوم بها ، فلابد أن يكون هذا القانون معياراً يُحاكِمُ به من يقوم به من أعمالٍ وسلوك ، فينظر في العمل الذي يحقق أكبر قدرٍ من المصلحة فيقوم به ، أو ينظر في عملٍ يحقق أكبر قدرٍ من دفع المفسدة فيعتمده ويجعله معتمداً عنده ، فالاعتماد على الموازنات هو من أقوى القوانين التي تدلُّ على الوعي المعاصر ، بناءً على الموازنات يمكن للإنسان أن يتخلى عن بعض الأشياء ، ويمكن للإنسان أن يتخلى عن بعض التصريحات ، ويمكن للإنسان أن يُقْدِم ، ويمكن للإنسان أن يُحْجِم لأجل مصلحةٍ أو لأجل دفع مفسدة.

ومن أكبر الشواهد على ذلك قصة الحديبية فإن النبي – ﷺ – حين أراد أن يكتب العهد والميثاق بينه وبين كفار قريش ، قال: اكتب هذا ما تعاهد عليه مُحَمَّد رسول الله ، فاعترض عليه المشرك وقال : لو كنت رسول الله ما حاربناك ، فأنت لست رسول الله .

فلاحظ أن المشرك الآن يعترض على قيمة كُبرى ، وعلى حقيقة يقينية عند النبي – ﷺ – وهو أنه رسول الله ، ومع ذلك تخلى النبي – ﷺ – عن التصريح بهذه الحقيقة ، نعم لم يتخلى عنها في حقيقتها ، وإنما تخلى عن التصريح بها وكتابتها ، لماذا فعل ذلك ؟ لم يفعلها النبي – ﷺ – إلا لأنه كان يُراعي الموازنات ، يُراعي المصلحة والمفسدة ، فَفِعْلُ النبي – ﷺ – يقول لنا إنما هو دعوةٌ للتخلي عن التصريح بكوني رسول الله ، وليس عن التخلي في الحقيقة أني رسول الله ، فتنازل عن ذلك لتتم مصلحة كُبرى .

لو تأمل كثيرٌ من المُشتغلين في المشروع الإسلامي في هذه الحقيقة وفي هذا القانون لَخَلَّت كثير من المشكلات التي يُمارسها أصحاب العنتريات أحياناً ، وأصحاب التصريحات الرنانة ، كثيرٌ من التصريحات التي يُطلقُها بعض المُشتغلين بالمشروع الإسلامي ضررها أكثر من نفعها ، وهو يتصور أن لو لم يُصَرّح بها لتخلَّى عن الفكرة نفسها أو عن المبدأ الإسلامي نفسه ، وهذا فيه خلطٌ كبير بين مبدأ الإسلام نفسه وبين التصريح به ، **فهناك فرقٌ بين الحقيقة وبين التصريح بالحقيقة** ، وهذه الموازنة التي قام بها النبي – ﷺ – تُرشدُنا إلى هذا المبدأ إلى أنه هناك فرق بين الحقيقة وبين التصريح بالحقيقة ، **فكونك تتخلى عن التصريح بالحقيقة في زمنٍ ما أو في حالةٍ ما ليس معناه أنك تخلَّيت عن الحقيقة ، وليس معناه أنك ضَعُفت أو ضَعُفَ إيمانك بالتسليم بالحقيقة.**

من أهم فوائد هذا القانون :

أ- التخلص من التعامل الرياضي في القضايا ، كثيرٌ من المُشتغلين بالعمل الإسلامي عندهم تعامل رياضي ، هذه القضية حدثت من كذا أو جاءت من فلان إذاً هي خطأ أو هي صواب ويعمل بها ، عنده تعامل رياضي قاتل ، والحقيقة أن الأمر ليس كذلك ، نحن نتعامل مع حالاتٍ إنسانية ، والمتفق عليه بين المُشتغلين بدراسة الظواهر الإنسانية أن الظواهر الإنسانية من أشدِّ الظواهر تعقيداً ليست هي مثل الظواهر الفيزيائية ، وليست مثل الظواهر الرياضية ، وبناءً عليه فلابد أن يُفعَّل قانون الموازنات ، وإلا سيصبح الإنسان في غاية الشطط والانحراف .

٢- القانون الثاني : الالتزام بالواقعية

ومعنى الواقعية هو أن يُراعي الإنسان طبيعة الظروف التي يعمل فيها ، فليس كلُّ مشروعٍ صَلُحَ في بلدٍ ما أن يَصلُحَ في بلدٍ آخر ، وليس كلُّ برنامجٍ صَلُحَ في منطقةً ما أن يَصْلُحَ في منطقةٍ أخرى ، لماذا ؟ لأن الظروف تختلف من بلدٍ إلى بلد ، ومن مشاريع إلى مشاريع ، وأيضاً كونُ مشروعٍ ما نجح في دولة بني العباس ليس معناه أن ينجح في وقتنا المعاصر ، فيفصل الإنسان بين التاريخ وبين الوقت المعاصر وغير ذلك .

من فوائد الواقعية إذا آمن بها الإنسان وطبَّقَها بطريقةٍ صحيحة:

أ- التفريق بين الآمال وبين المشاريع ، كثيرٌ من الشباب جعل آماله مشاريع فهو عنده أمل أن يُعيد الإسلام إلى العالم فجعل هذا مشروعه ، ففرقٌ كبير بين الأمل وبين المشروع ، نعم هذه أمنية وهدف استراتيجي ولكن هذا الهدف الاستراتيجي لابد له من أهداف كثيرة تكتيكية ومرحلية ، فكثيرٌ من الشباب جعل هذا المشروع وهو إقامة الخلافة الإسلامية مع أن الخلافة الإسلامية في الحقيقة أمل ، هي في الحقيقة هدف استراتيجي ولا مشروعاً واقعياً ، نعم هذا الهدف أو هذا الأمل يحتاج إلى مشاريع كثيرة حتى تصل الأمة إليه ، ولكنَّ كثيراً من الشباب غَفِلَ عن ذلك ، فجعل أمله هو المشروع ، وبناءً عليه كلُّ من خالفه في مشروعه جعله مخالفاً في أملهِ ، فيأتي إلى المخالفين له في مشاريعه التي يقوم بها ويقول أنتم لديكم مشكلة في الخلافة الإسلامية أو في إرجاع الخلافة الإسلامية ، وهذا كُلُّهُ شطط ، وكُلُّهُ خروج عن الوعي والتعقل ، لماذا ؟ لأنه خرج عن الواقعية وعن قانون من قوانين الوعي.

وأيضاً من آثار الواقعية:

ب- التفريق بين حالة الضعف وحالة القوة ، فليس كلُّ مشروعٍ نجح في حالة القوة يمكن أن ينجح في حالة الضعف ، فالتفريق بين فقه القوة وفقه الاستضعاف هذا من آثار الواقعية ومن قانون من قوانين الوعي وهو قانون الواقعية.

ومنها أيضاً :

ت- التخلص من مشكلة التشابه المُزيف ، هناك مشكلة أطلقها بعض الدارسين الاجتماعيين سماها مشكلة (**التشابه المُزيف**) ومعنى هذه المشكلة أن بعض الناس يذهب إلى مجتمعٍ ما ، أو يذهب إلى مرحلة من مراحل التاريخ ، فيرى فيها حادثةً ثم يأتي ويُطَبِقُها على واقعه أو على نفسه ، لماذا ؟ لأنَّ هناك تشابه بينه وبين تلك الحالة ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك – مثلاً – أن بعض الإسلاميين نظر في حالةِ فرعون ، وأنَّ فرعون علا في الأرض ، وقَتَّل المسلمين ، وأنَّ المسلمين كانوا في زمنه مُستضعفين ، ثم ينظر في الحال الآن ويقول عادت الفرعنة من جديد ، نحن مسلمون مستضعفون وهناك من يُقَتِّلُنا ويذبحُنا ، إذاً سننتصر ، والانتصار قريب ، ولا ننتظر فقط إلا أن يأتي من يُغرق هؤلاء المجرمين ، هذا نوعٌ من التشابه المُزيف ، ليس بالضرورة أن الله عز وجل أهلك فرعون بسبب جبروته وفرعنته أن تنطبق هذه الصورة على كلِّ فرعنة لأنَّ هناك شروط وضوابط إيمانية واجتماعية وشروطٍ واقعية لابد من تَحَقُّقِها ، فلا يصح لك أن تأخذ تشابهٍ ما فتجعله منطبقاً على حياتك فهذا تشابهٌ مُزيف يدلُّ على أنك فاقدٌ لقانون من قوانين الوعي وهو قانون الواقعية .

٣-القانون الثالث : الابتعاد عن الحُلُول الصِّفرية

إذا آمنا بأن الواقع الذي نعيشُ فيه واقعٌ مُعَقَّد ، فإن من أهمِّ القوانين التي لابد أن نعتمد عليها ونأخذ بها هو قانون الابتعاد عن الحُلُول الصِّفرية ، **والمراد بالحُلُول الصِّفرية أي الحُلُول الحادَّة ، نعمٌ أو لا ، صحٌ أو خطأ ، نمضي أو لا نمضي ، وهكذا** ، هذه الحُلُول لا تكون مفيدةً في الحالات المُعَقَّدة ، **دائماً الحالات المُعَقَّدة لا تعرف الحُلُول الصِّفرية** ، لأنَّ الحُلُول الصِّفرية فيها تؤدي إلى شطط ومفاسد كبيرة ، فالحالات المُعقَّدة لابدَّ فيها من الموازنات والواقعية .

من آثار هذا القانون :

أ- تصحيح بعض المفاهيم وبعض المعايير والموازين ، كثيرٌ من الشباب يظنُّ أن النجاح الحقيقي هو في عدد القرارات التي يتخِذُها في مشروعه ، والحقيقة أنَّ الأمر ليس كذلك ، **فالنجاحُ ليس بعدد القرارات التي تتخِذُها وإنما بعدد المصالح التي تُحَقِقُها** ، كيف نصل إلى هذا الحُكْم وإلى هذا المبدأ ؟ نصل إليه إذا استشعرنا قانون الابتعاد عن الحُلُول الصِّفرية .

٤- القانون الرابع : الالتزام بالتفكيك

ومعنى الالتزام بالتفكيك أي أن الإنسان لا يتعامل مع المشكلات كقالبٍ واحد ، وإنما يُفَكِكُها إلى مُكوناتها الصُغرى ، ثم يُصدِّرُ عليها الحُكْم المناسب ، فليس صحيحاً أن تأتي إلى واقعٍ مُعَقَّد مليءٍ بالمشكلات التي تتصفُ بالتداخل والتَّرَكُب والصعوبة ثم تتعامل معها على أنها قالب واحد ، وإنما قانون الوعي أن تأتي إلى هذه المُشكلات وتُفَكِكُها وتدرُسُها من عددٍ من الجوانب ، وتدخل إليها من عددٍ من المنافذ حتى تتعرَّف عليها بطريقةٍ صحيحة .

ومن آثار هذا القانون إذا التزم به الإنسان :

أ- أنه يتخلَّص من عدد من المشكلات التي نراها في واقعنا ، ومن ذلك التخلُّص من التعميم ، هناك تعميمٌ في الأحكام ، وتعميمٌ في القرارات ، وتعميمٌ في النتائج ، سببُها أن هذا المتَّخِذ للتعميم لم يُمارس التفكيك بطريقة صحيحة مع أن القرآن يقول : **(لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) [آل عمران:١١٥]** فلاحظ أن القرآن أرشدنا إلى ضرورة التفكيك ، وإلى ضرورة التمييز بين المتداخلات ، وسببُ ذلك لأنَّ هذا من أقوى قوانين الوعي التي لابد أن يلتزم بها الشباب المسلم.

أيضاً من ذلك الخروج من الأحكام المُقولبة ، بعض الناس إذا أحبَّ شخصاً أحبَّهُ كُلَّ حياته ، وإذا أبغض شخصاً أبغضَهُ كُلَّ حياته ، ومن الناس مَنْ إذا رأى عند شخصٍ خطأ حَكَمَ على كلِّ ما لديه من خطأ ، ومن الناس مَنْ إذا رأى عند شخصٍ شيئاً محبوباً أو شيئاً صواباً حَكَمَ بأنَّ كلَّ ما لديه صواب ، وهذه القوالب من أخطر ما أضرَّت بالشباب العاملين في المشروع الإسلامي ، لابدَّ أن نخرج من القولبة وأنّ نتخلَّص منها ، ولا يمكن أن نصل لذلك إلا عن طريق قانون التفكيك بحيث أننا نتعامل مع القوالب التي أمامنا بمبدأ التفكيك فَنَحْكُمُ على كلِّ جزءٍ بما يُناسِبُهُ ، فلا نقع في التعميم ،ولا في الأحكام المُقولبة.

٥- القانون الخامس : التَجَرُّد للحق

ومعنى هذا القانون هو ألا يكون الإنسان مُرتَهِناً ولا خاضعاً ولا مُسَلِّماً إلا للحق ، لا يُسَلِّمُ لشيخه دائماً ، ولا لقائده دائماً ، ولا يُسَلِّمُ لحزبه دائماً ، ولا لجماعته ولا لأصدقائه ، وإنما تسْلِيمُهُ وخضُوعُهُ وارتِهَانُهُ للحق ، هذا القانون من أهمِّ قوانين الوعي ، لأنَّ كثيراً من القرارات التي يتَّخِذُها عددٌ من المُشتغلين بالمشروع الإسلامي لا يتَّخِذُها وهو متجردٌ للحق ، وإنما يتَّخِذُها وهو مرتهنٌ لحزبه أو جماعته أو شيخه أو صديقه أو غير ذلك ، فنقع في إشكالاتٍ كثيرة ، وآثارٍ سيئةٍ واسعة.

ومن آثار التفريط في هذا القانون :

أ- إهدار الكفاءات ، كثيرٌ من الجماعات الإسلامية أهدرت الكفاءات وفرَّطت فيها ، لماذا ؟ لأنهم لم يتَجَرَّدُوا للحق ، لمَّا كان هذا الرجل صاحب الكفاءة ليس مُنتمياً إليهم ، أو ليس داخلاً في حزبهم ، أو ليس مُتعاطفاً معهم أو غير ذلك فَرَّطوا في كفاءته فلم يستفيدوا منه ، فوقعوا في إهدار الكفاءات ، وضَعُفَ حالهم ، وربما تفكك مع المستقبل .

ب- المُجاملات على حساب الحق ومصلحة العمل ، فتجد كثير من العاملين في المشروع الإسلامي يُجامل مَنْ هو أكبرُ منه سناً ، أو أقدَمُ منه في العمل لأجل هذه النقطة فقط ، أو لأنه قريبٌ له أو صديقٌ له أو غير ذلك من المُجاملات ، فيُعْطِيه ملف من الملفات أو يُكَلِّفه بعمل من الأعمال هو لا يُحْسِنُهُ ولا يليقُ أن يقوم به ، فنقع في كثيرٍ من الإشكالات ، لماذا ؟ لأننا فرَّطنا في قانون من قوانين الوعي وهو التجرد للحق .

- وهناك آثار كثيرة لو تأملناها نجد أنها راجعة إلى التفريط في هذا القانون ، وأننا لم نلتزم به بشكلٍ صحيح.

٦- القانون السادس : التحرُّرُ المُستقيم

وهذا القانون قريبٌ من القانون الأول ، لكن أريد به أن يكون لدى الإنسان تحرُّر من المؤثرات الخفية والظاهرة ، **ومن أشدِّ المؤثرات على الناس سُلطة العقل الجمعي أو أحياناً تُسمى (الثقافة الغالبة)** فلابد أن يكون عند الإنسان تحرُّرٌ مُستقيم ، بمعنى أن يكون لديه تفطنٌ ونباهةٌ بهذه المؤثرات التي ربما يغفل عن تأثيرها ، فلابد أن يكون مُهتماً بها حتى يكون مُلتزماً بقانون من قوانين الوعي وهو قانون التحرُّر المُستقيم .

٧- القانون السابع : تفعيلُ المُحْكَمات

الله عز وجل أرشدنا في القرآن إلى أهمية المُحْكَمات وإلى أنها أمُّ الكتاب ، وإذا كانت أمُّ الكتاب إذاً هي أصلٌ ننطلق منه ، ونُحاكمُ الأمور إليه ، والمُحْكَمات التي أرشدنا إليها القرآن ، وقد كتبتُ فيها مقالاً منشوراً بعنوان (**أنواع المُحْكَمات**) هي أربعة أنواع :

أ- المُحْكَمات التشريعية

ب-المُحْكَمات المعرفية

ت-المُحْكَمات الأخلاقية

ث-المُحْكَمات الكونية (هي السُّنن الكونية التي تحدثنا عنها)

هذه المُحْكَمات لابدَّ أن نحرص على تفعيلها ، لأننا إذا فعلّناها سنكون مُحققين لقانونٍ من قوانين الوعي ، وسنُصبح مُحققين لقاعدةٍ من القواعد الكُبرى التي تنطلقُ منها المشاريع الإصلاحية ، وأكثرُ ما أضرَّ بالمشاريع الإسلامية أنها فرَّطت في المُحْكَمات التي أرشدت إليها الشريعة سواء في القرآن أو في السُّنة .

فإذا أردنا أن نكون مُلتزمين بقانونٍ من قوانين الوعي فعلينا أن ننعطف من جديد على هذه المُحْكَمات ، وندرُسُها دراسةً مُعمقة ، ونُفَعلها في حياتنا وفي إقامة مشاريعنا ، ونُفعلها في أحكامنا ، فإذا قمنا بذلك نكون قد حققنا قانوناً عظيماً من قوانين الوعي .

٨- القانون الثامن : التفكير في الخُطط البديلة

ومعنى هذا القانون أن أيَّ إنسانٍ يقوم بعملٍ لأجل الإسلام أو لأجل أيّ أمرٍ آخر لابدَّ أن يُفكِّر في الخُطط البديلة التي تُساعد على استمرار مشروعه ، ما مِنْ مشروعٍ سواء كان دعوياً أو إصلاحياً أو علمياً أو فكرياً أو حتى تجارياً إلا وتعتريه عقباتٌ ، هذه العقبات قد تؤدي إلى إفساده وإعطابه ، فصاحب الوعي إذا خطط لمشروعه لابدَّ أن يكون من تخطيطه التخطيطُ في الحُلُول البديلة ، بمعنى أنه إذا استمر هذا المشروع ثم اصطدم بعقبةٍ من العقبات ، ما هي الحُلُول البديلة التي يُمكن أن نسلُكها ؟ كثيرٌ من أصحاب المشاريع الإسلامية لا يُفكِّرون في المشاريع البديلة إلا إذا اصطدموا بالعقبات ، ولا يُفَكِّرون فيها من قبل ، وهذا خطأٌ جسيم ، الصحيح أن كلَّ بانٍ لمشروعٍ ما سواءً كان دعوياً أو إصلاحياً أو غير ذلك ، أنه عند بناءه يُفَكِّرُ في بناء المشروع ويُفَكِّرُ أيضاً في الخُطط البديلة ، لابدَّ أن يضع لمشروعه خُطتين خُطة أ ، وخُطة ب موجودة ، لماذا ؟ لأنَّ هذا من أقوى ما يساعد على تكوين الوعي بطبيعة العمل الذي يقوم به ، ولا يصح لنا أن نبني مشاريعنا وليس عندنا إلا خُطة واحدة وهي خُطة أ ، ولا نُفَكِّر في خطة ب إلا إذا احتجنا إليها ، واصطدمنا بعقبةٍ من العقبات ، وربما لا نجدُ وقتاً للتفكير في خطة ب ، فمن الواجبات ومن القوانين المُهمة لتكوين العقلية الواعية في عصرنا الحاضر أن نُفَكِّر في الخُطط البديلة ، أو بعبارةٍ أخرى أن نُوزع خططنا إلى نوعين : خُطة أ ، وخُطة ب .

- هذه القوانين الثمانية هي من أهمِّ القوانين التي أرى فيها تأثيراً في تكوين العقلية الواعية لدى الشباب المعاصر ، وقد تكون هناك قوانين أخرى يستنبِطُها عدد من الإخوة والناظرين في هذا الموضوع ، أو هذه القوانين قد يدخلُ بعضها في بعضٍ ، وأيضاً هذه القوانين لها شواهد كثيرة في التاريخ وفي سيرة النبي – ﷺ – لم أذكرها اختصاراً وإلا هناك شواهد كثيرة يُمكن استنباطُها من فعل النبي – ﷺ – والصحابة والمُصلحين والمُشتغلين بالإصلاح في العالم الإسلامي ، فهي في الحقيقة موضوع ثري جداً لدراسة التاريخ ، ودراسة التراث ، واستخراج الشواهد على هذه القوانين .
- هذا فيما لدي في هذا الموضوع واسأل الله عز وجل أن يكون فيما طَرَحتُهُ لكم فيه فائدةٌ لكم ونفعاً ، والله أعلم ، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين .

جزى الله من قام على نشرها بين المسلمين

تم تفريغ المحاضرة يوم الأحد بتاريخ

١٨ شعبان ١٤٣٨هـ

١٤ / ٥ / ٢٠١٧م